الأهرام

المصدر: الاهرام الاقتصادى

التاريخ : ١٧ نوفمبر ٢٠٠٢

فكر الحركة المصرية المناهضة للعولمة

قدمنا **فى الأسبوع الماضى لهذا المقال بالحديث عن ميلاد مايسمى بالحركة المصرية المناهضة للعولمة، وهى حركة شكلها عدد من المثقفين اليساريين المصريين وأعلنوها فى اجتماع عام بمناسبة زيارة جيمس ويلفنسون رئيس البنك الدولى للقاهرة، ولكن الحركة من الناحية الفكرية أقدم بكثير، وربما كانت بداياتها الأولى تعود إلى بداية التسعينيات وفى أعقاب الحرب الباردة عندما أخذ اليسار المحلى والعالمى موقفا مضادا ومناهضا لما سمى آنذاك «بالنظام العالمى الجديد». وكان هذا الموقف تعبيرا من جانب عن صدمة وخيبة أمل كبيرة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وتجربته الاشتراكية فى عدد من بلدان العالم، ومن جانب آخر تعبيرا عن الاخفاق الكبير لنظرية «التبعية» التى قادها عدد من مثقفى الغرب والعالم الثالث لشرح العلاقة بين العالم المتقدم والعالم الثالث خلال السبعينيات والثمانينيات.**

فقد كان الظن ان التجربة التنموية لدول الجنوب سوف تقود فى النهاية إلى مايسمى «**بالتنمية المستقلة**» أى المنعزلة عن التطور الرأسمالى العالمى، ومع ذلك فقد كانت نتيجة نهاية الحرب الباردة ليست استراتيجية فى المقام الأول من حيث اختفاء الدولة العظمى ومعسكرها كلية، وإنما كانت النتيجة أيضا ـ وربما الأهم ـ هو انتصار الرأسمالية كنظام اقتصادى واجتماعى. ولم يمض وقت طويل حتى كان واحدا من أهم مثقفى «**التبعية**» فى العالم الثالث وهو كاردوسو يقود واحدة من أهم دول العالم الثالث على الاطلاق وهى البرازيل إلى الاندماج فى الاقتصادى الرأسمالى العالمى الحديث، ولم ينته عقد التسعينيات حتى كانت أكبر دولتين فى العالم الثالث وهما الهند والصين قد اصبحتا جزءا لايتجزأ من الرأسمالية العالمية المعاصرة.

وفى هذا الوقت كانت مفردات العالم قد تغيرت وذهب تعبير «**النظام العالمى الجديد**» لأن البعض رأى فيه استعارات فاشية، وتم استبداله بتعبير «**العولمة**» ومع هذا الانتقال جرى انتقال آخر للناقدين والمناهضين، وبنفس الحجج تقريبا.

وفى مصر كان اليسار المصرى والعربى يرقص على نفس الأنغام التى رقص عليها دوما وهى مايصدر من منتجات ثقافية وفكرية لليسار الأمريكى والأوروبى.. والحقيقة المرجحة ان اليسار العربى كان له قضية وطنية اساسية ضد الغرب بسبب المأساة الفلسطينية، ومن ثم ترجمها إلى مشايعة لكل ماهو مضاد للرأسمالية، والنظام العالمى الجديد، وأخيرا العولمة. ومع ذلك فان الأمر لم يخل من بعض المحاولات الأصيلة للتنظير والتفكير فى الموضوع يقع فى مقدمتها ذلك الكتاب الذى ألفه الأستاذ **الدكتور جلال أمين** ـ أستاذ الاقتصاد في

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الجامعة الأمريكية فى القاهرة - تحت عنوان «**عولمة القهر، الولايات المتحدة والعرب والمسلمين قبل وبعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١**»، وهو بلاشك أفضل الكتابات المناهضة للعولمة باللغة العربية وأكثرها قناء وصفاء وتعبيرا عن الفكر العربى فى الموضوع.

والكتاب كما هو واضح من عنوانه يخلط ماهو سياسى واقتصادى واجتماعى وثقافى ببعضه البعض، تماما كما فعلت الحركة المصرية لمناهضة العولمة حينما اثارت موضوع العراق فى إطار معارضتها للبنك الدولى، وهو ما أشرنا له فى مقال الاسبوع الماضى. فالمناهض الأصيل للعولمة لديه حزمة أصيلة لمجموعة من الاعداء تبدأ بالولايات المتحدة والغرب وتنتهى باسرائيل والصهيونية مرورا بالرأسمالية والغزو الثقافى والتبعية على الطريق. وفى العادة فانه عند أى طرح أى موضوع منها لابد له أن يدلف إلى باقى الموضوعات الأخرى بسهولة ويسر شديدين، وفى الأغلب فان حماسه لايفتر قبل ان يتم تناولها كلها، وربما كان ذلك سر تفوق المثقف الرأسمالى فى الواقع العملى، فهو غالبا سوف يتحدث عن موضوع واحد يسبب ارتفاع نسبة النمو، أو حل المشكلات الاجتماعية المترتبة عليه، أو كيفية توفير أجواء ومناخ اقليمى وعالمى يكفى لانتشار الرأسمالية ومدها إلى بلدان أو طبقات اجتماعية جديدة، ولكنه فى ذات الوقت لن يتحدث فيها كلها حتى يحقق أقصى حد من اعتبارات «**الكفاءة**» الفكرية. أما المفكر اليسارى فان ضميره لايسمح باقل من حل كل مشاكل العالم والوطن فى وقت واحد.

الحجة الفكرية اليسارية المعتادة هى ان الظاهرة الاجتماعية معقدة وكلها مختلطة ابعادها ببعضها البعض، وبالتالى فان المفكر هنا يكون قد تخلى منذ البداية عن وظيفته الفكرية التى تقوم بعزل هذه الأبعاد والتعامل معها بالطريقة التى تفيد البشرية. ولكن ربما كان ذلك نقاشا أكاديميا على أية حال، ويذهب فيه الناس مذاهب شتى. أما عندما يتم الخلط بنظرية «**المؤامرة**» فان الفكر يكون قد تنازل عن أهم وظائفه وهى «**عقلنة**» الأمر وشرحه وفق دلائل وبراهين يمكن الحوار والجدال حولها بالاثبات والرفض. أما مايقوله لنا الدكتور جلال أمين فهو أن «**العولمة**» هى مجرد ترجمة أخرى للاستعمار بطريقة أخرى، وفى حالته الجديدة غير الظاهرة، والمغطاة بالحديث عن القرية العالمية يستطيع أى «متنطع» أن يتصدى للفكر المناهض للعولمة ويقول: «**هاهى نظرية المؤامرة من جديد!**»، ويمضى الدكتور أمين قائلا:

«**فما الذى ينتظره منا هؤلاء؟ أن نقدم لهم وثائق رسمية موقعة ومختومة تشرح كيف ان الدولة الاستعمارية هى التى أجبرتنا على استبدال حكومة بحكومة، أو على استبدال وزير معين بغيره، أو على توقيعنا على اتفاقية الجات، أو على العدول على عقد اجتماع للقمة، أو على السكوت على اعتداء اسرائيل على لبنان، أو على السكوت وعدم الاحتجاج على هيئة سلامة النقل الأمريكية الذى ينسب**

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

سقوط الطائرة المصرية ظلما لطيار مصرى برئ.. الخ؟ هل يريدون منا أن نقدم لهم شريطا مسجلا عليه محادثة بين وكالة المخابرات وبين قتل السياح في الأقصر، أو من اعتدى على نجيب محفوظ أو من قل بعض الأقباط فى المنيوم؟».

وهكذا يمضى **د. جلال أمين**، ومعنى كلامه انه لايمكن محاسبة فكر ما، طالما أن البرهنة صعبة التحقيق، ووجب من ثم قبول كل الادعاءات المطروحة من مفكر أو كاتب، ولكن جوهر الموضوع يظل مطروحا على الرأى العام شئنا أم أبينا، وهو يقوم على ان العالم العربى، بل والعالم الثالث، ومصر فى قلبهما، يعيشان تحت الاستعمار الغربى والأمريكى تحديدا، المشكلة هنا الاستعمار كان يعنى أشياء محددة، فهى تعنى اخضاع شعب وأرض محددة لارادة الدولة المستعمرة، وليس سرا إذا كانت مصر مستعمرة أمريكية حقا .إن ذلك لايوجد له أى أساس فى الواقع، فالخلافات المصرية ـ الأمريكية فى أمور حيوية واستراتيجية معروفة، سواء ماتعلق بليبيا، أو فلسطين أو العراق، أو السودان. وبالتالى فان فكرة **الخضوع** لاوجود لها، أما إذا كان الاستعمار مباشرا أو غير مباشر يمثل نوعا من أنواع نزح الموارد عن بلد ومنحه بلا ثمن، وباثمان بخسة لبلد آخر، فمرة أخرى فان الثابت هو ان الموارد لاتذهب من مصر إلى أمريكا وإنما العكس تماما هو الذى حدث، عما يقوم بلد بمنح بلد آخر قرابة ٥٢ مليار دولار من المعونات، فان ذلك يعنى اننا أمام نوع جديد تماما من الاستعمار لم تعرفه البشرية من قبل، ولاحتى **د. جلال أمين**. وبالطبع لاينبغى هذا القفز للقول أن ماذكرناه يعنى ان امريكا تعطى مصر من أجل سواد عيون نسائها، وهو أمر لانقول به، وأن مانقول انه من الممكن فى عصر العولمة ان تقوم علاقات بين الدول على أساس من النقاء واختلاف مصالح مادية واستراتيجية.

وربما تمكن هذه المعضلة الكبرى للفقه المضاد للعولمة وهو الفقر الشديد فى التعريف والتحديد، فرغم ان **د. جلال أمين** عرف العولمة بانها «**تضاؤل المسافات الفاصلة بين الأمم، سواء فيما يتعلق بانتقال السلع الخدمات، أو انتقال العمالة ورأس المال، أو انتقال الأفكار والأنماط والسلوك والقيم**»، إلا انه لم يعرف القهر الذى هو جوهر الموضوع كله من حيث اعتبار العولمة حالة أخرى من الاستعمار. وقد سبق ان فحصنا التعريفات المعروفة للاستعمار ووجدنا انها لاتنطبق على الحالة المصرية، وحتى ولو أخذنا تعريفا عاما للقهر يرتبط بالرأسمالية بشكل مهم فان القهر فيها مرتبط بفائض القيمة، **واستغلال** العمال والعاملين من خلال **اغتصاب** فائض القيمة الذى يولدونه. هنا فليس مفهوما او محددا ماهو ذلك الفائض الذى يحصل عليه الاستعمار او الشركات متعددة الجنسية فى عصر العولمة التى تعتمد اساسا ليس على قوة العمل، أو الموارد المادية، وإنما على قوة الافكار المتولدة من العقل الانسانى، وباختصار ماهو القهر الذى

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

د.عبد المنعم سعيد

يقع على عاتق الانسان من عملية استخدامه لشبكة الانترنت او استخدام تليفونه المحمول او مشاهدة الفضائيات التليفزيونية او الاستثمار فى اسواق المال العالمية، وكلها تمثل «**العولمة**» كحقيقة مادية لقصر المسافات التى جعلها مؤلفنا المناهض للعولمة جوهر تعريفها.

ولكن العولمة أكبر، وأطول، من المسافات، وهذا البعد على اهميته يمثل الطريق إلى العولمة وليس جوهرها وموضوعها الذى يظل هو السلع والخدمات والأفكار والقيم، التى ينبغى عندها تحديد فكرة الاستعمار والاستغلال والقهر.

فالكتاب على أهميته، ووضوحه، يكاد يجعل كل حالة من حالات عدم المساواة وعدم التكافؤ، وعدم التوازن، صنوا للقهر. وهى فكرة صعبة القبول، فقد خلق الله البشر متساوون حقا من زاوية كونهم بشرا لهم حقوقا اساسية متساوية فى الحياة، والعمل على الحصول على السعادة، ولكنهم من جانب آخر غير متساويين من حيث الملكات ودرجة الذكاء والقدرة على العمل، وفى كل الأحوال فانه لايستوى الذين يعلمون ومن بينهم الدكتور جلال أمين والذين لايعلمون وهم كثير.

وبنفس الطريقة فان الاقطار والبلدان تتكافأ وتتساوى من حيث حقها فى التعبير عن ملكاتها والاستقلال بقرارها، ومن جانب آخر فان الدول لاتتساوى من حيث الحجم والقدرات، وكثيرا مايكون بفعل مدى الاندماج أو عدم الاندماج فى العولمة. فالحقيقة انه لايوجد مايقطع ان الاندماج فى العولمة والمنافسة العالمية لايعنى بالضرورة ان يزيد الأغنياء غنى والفقراء فقرا، وإنما يختلف الحال من بلد إلى آخر حسب قدراته فى اعداد مواطنيه للتعامل مع العولمة والمنافسة من خلالها. وعلى سبيل المثال فان الدول التى حققت مستويات عالية من التنمية البشرية نجحت فى رفع مستويات المعيشة لابنائها، أما الدول التى لم تفعل فقد تدهورت أحوالها، وكانت هذه الأحوال ستتدهور سواء كانت هناك عولمة أو لم تكن هناك.

ومن الناحية الثقافية فليس صحيحا أن العولمة أدت إلى سيادة أشكال الثقافة الواحدة، بل ان العولمة اتاحت ادوات هائلة لثقافات العالم المختلفة لكى تعبر عن نفسها على المستوى العالمى، ومن هنا فلم تكن ماكدونالد والكوكاكولا هى التى انتشرت على مستوى العالم بل نافستها الفاهيتا المكسيكية والسوشى اليابانى والترياكى الهندية وحتى الكباب اللبنانى. وما انطبق على الطعام انطبق على الموسيقى والأدب والفكر بشكل عام، فالقضية فى زمن العولمة ليس عما اذا كانت ثقافة تهيمن على الاخرى فى العالم، وإنما عما اذا كانت ثقافة بعينها لديها ماتعطيه للعالم؟ وتلك هى المسألة!!..

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية